Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ۱۱، العدد ۳، خریف ١٤٣٦ هـ
صفحة ۳۸۷– ٤٠٨

ظاهرة الاغتراب في شعر عزالدين المناصرة

أمير فرهنگ نيا[1*]، كبرى روشنفكر[2]، خليل پرويني[3]

۱. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها من جامعة تربيت مدرس
۲. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس
۳. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة تربية مدرس

(تاريخ الاستلام: ۲۰۱۵/۲/۲۲ ؛ تاريخ القبول: ۲۰۱۵/۷/۲۸)

الملخّص

إن الاغتراب من أهم القضايا التي تبحث عن مشاكل المجتمع المعاصر، ويعبر عما تجيش به النفس من مشاعر الحزن والألم؛ فلم يكن الشعر العربي المعاصر بعيداً عن هذه الظاهرة؛ فالشعراء كثيراً ما أدلوا بدلوهم وتكلّموا عما يعانونه من مشاكل يرونها في مجتمعهم؛ فمنهم من عاشوا حياة صعبة ومنهم من هاجروا بلدانهم للتخلص من أعباء الوطن مفضِّلين النأي عن الأهل والمواطنين؛ قصدا إلى العمل خارج حدود الوطن، وبالحركية والنشاط من أجل استعادة ما يستهويهم من حياة معيشية مرضية في بلدهم، فإنهم عبّروا عن مشاعر الحزن والألم بسبب ما يرونه من واقع مرير يعانيه شعبهم وذلك باستخدام الرموز التاريخية والدينية والشعبية، هادفا إلى إثارة الحياة والاستبشار والأمل في مستقبل أفضل، أو استشراف المستقبل عند أبناء الشعب. يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الاغتراب عند الشاعر الفلسطيني المعاصر، محمد عزالدين المناصرة وفقاً للمنهج الوصفي التحليلي، ويلاحَظ الاغتراب بأنواعه المختلفة من المكاني والذاتي والاجتماعي في كثير من مجموعاته الشعرية؛ حيث تسبّب في أن يكون شاعراً ذا خصوصية وتفرّد في شعره؛ بحيث يمكننا تسميته بالشاعر المغترب الكبير الذي تلوّن كثير من قصائده بلون الغربة والاغتراب والحنين؛ ويتجذر الشعور بالإغتراب عنده في عدم الرضى أو القناعة بالحالة التي يعيشها، فهو حالة من التناقض في وعيه وإدراكه؛ فإنه الشاعر البارز الذي أعطى للاغتراب اهتماماً مركزاً؛ وكما رأينا من أهم مظاهر الاغتراب عنده هو العزلة والشكوى والطموحية واستشراف المستقبل.

الكلمات الرئيسة

الاغتراب، الحنين، الشعر الفلسطيني المعاصر، عزالدين المناصرة، الوطن.

---

* الكاتب المسؤول

Email: farhangnia2002@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

إذا كان الشاعر هو من يشعر بما لا يشعر غيره، فإن الوعي العميق لحقائق الحياة ومجريات الأحداث والأمور يدفع الشاعر إلى الالتزام وحرية الرأي والتعبير إلى أن يصل إلى مرحلة حرية التمرد والرفض لما لا يستهويه ولا يعجبه، والتمرد على مشاكل ومعاناة الشعب.

يقول أبوالفرج الأصفهاني: «كنا نسمع أهل العلم يقولون: فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة» (الأصفهاني، ١٩٧٢م: ١١)؛ وفي عهدنا الراهن يستخدم فروم[1] مصطلح الاغتراب[2] ليشير به بشكل عام إلى عدد من العلاقات المتنوعة كعلاقة الإنسان بذاته، وعلاقته بالآخرين وبالطبيعة، وبالعمل الإنساني وناتجه (حسن، ١٩٩٥م: ٦٧). فالمغترب هو ذلك الإنسان الذي فشل كاملاً في خلق تواصل مع الآخر، إنه مسجون مع أنه ليس وراء القضبان.

إن الإحساس بالفقد واليأس والانقطاع ينتج عن الشعور بأن الموت هو اغتراب مكان لا يؤوب صاحبه أبداً، ويزيد من قسوته غربة المكان وبعد المسافة، فلا يعرف لذلك القبر مزار ولا لصاحبه مؤنس، أهو في صحراء مقفرة أم تحت ركام جبال قاسية (السويدي، ١٩٩٧م: ٣٢). هذا وقد كشف الشعراء المغتربون عن مشاعرهم تجاه المرأة، وأكثروا من بثّ الحنين إليها في أشعارهم؛ كما اهتموا بالتعبير عن مشاعر المرأة من حنين وشوق إلى الرجل، لأنه في كثير من الأحيان تقف المرأة صامتة، تخفي مشاعرها خشية المجتمع الذي تعيش فيه؛ ويستحق موقف المرأة من اغتراب الرجل وقفة خاصة؛ فقد كانت هي الزوجة، والابنة، والحبيبة؛ وكان المجتمع يفرض عليها أن تكتم مشاعرها، ولكن كان الشعراء يتحدثون بلسانها أو ينقلون بعض أشكال معاناتها، ويحاورونها في قصائدهم، وكانت ـ في معظم الحالات ـ تلعب دورا إيجابيا في تخفيف غربة الرجل، أو زيادة حدّتها ورفعها إلى حدودها القصوى (الشعراوي، ٢٠١١م: ٥٣).

إن الاغتراب هو قضية الإنسان في كلّ زمان ومكان، ولا نستطيع أن نقول فقط إنه قضية هذا العصر، قد تختلف ظاهرة الاغتراب من عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى مجتمع؛ إلا أننا

---

1. Fromm
2. Alienation

www.SID.ir

Archive of SID

لا نستطيع القول بأن هناك عصرا قد خلا من الاغتراب فطالما كان هناك مسافة بيني وبين الآخر، وبيني وبين ذاتي، وبيني وبين الأشياء فلا بدّ وأن أشعر بالاغتراب، وطالما أن هناك هوة شاسعة بين المثال والواقع، وبين الحلم والحقيقة، فلابدّ وأن نشعر بالغربة وبأن هناك شيئا ما يفصلنا عن هذا العالم (حسن، ١٩٩٥م: ١٥٩).

وأما بالنسبة لخلفية البحث فإن من أبرز الدراسات التي تناولت قضية الاغتراب والغربة في الشعر العربي، هي: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، لجعفر، راضي محمد، تعرض الكاتب في الفصل الأول لأنماط الاغتراب لدى الشعراء العراقيين الرواد، والعودة إلى الطفولة، واستعادة الماضي والمدينة الحلم، وفي الفصل الثاني والثالث، تطرق إلى البنية اللغوية والتصويرية لشعر الاغتراب عند هؤلاء الشعراء؛ كما نلاحظ في كتاب «الغربة في الشعر الجاهلي» لعبدالرزاق الخشروم، تناول المؤلف الغربة والاغتراب في المجتمع الجاهلي، وتعرض لعوامل الغربة، ثم قام بدراسة الغربة في شعر المتلمس الضبعي، وعنترة، والشنفرى، وعدي بن زيد، والحارث بن ظالم، وختاماً تطرق إلى الحنين الماضي، يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التي تناولت قضية الغربة والاغتراب والصعلوك والفقير في المجتمع القبلي الجاهلي. وهناك «*موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي*»، رسول بلاوي وآخرون، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، ٢٠١٢، ع١٩ (٣)، ٧٧- ٩٣؛ عرف الباحثون بالموتيف، واعتبر الاغتراب من أهم الموتيفات في شعر السماوي، حيث ينطوي على محاور تعود إلى إحساسه الغربة، وأهمها الحزن والموت والحنين، وبعض الرموز التي تدل على الغربة كالطيور المهاجرة والحمامة والبحر والريح؛ كما نرى في مقالة «*الغربة في الشعر العربي الشاعر العراقي المهاجر نموذجا*» لعدنان اشكوري وآخرون، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، السنة ١٥، العدد ٤، شوال ١٤٢٩، مهر ١٣٨٧، ٦٣-٧٥؛ حيث قام الباحثون بتعريف الغربة والاغتراب، وتناولوا مظاهر الغربة في الشعر العربي، ونماذج من الاغتراب في شعر المهاجرين العراقيين، من المكاني إلى الزماني والسياسي؛ هناك مقال آخر بعنوان «*دراسة مقارنة لنوستالجيا في شعر عبد الوهاب بياتي وشفيعي كدكني*» لمؤلفيه كبري روشنفكر، سجاد إسماعيلي، نشر في «فصلية جستارهاي زباني»؛ تعرضت المقالة لنوستالجيا كحالة نفسية تظهر في الإنسان مفاجأة؛ تعتري على شاعر أو كاتب في حقل الأدب، إثر دواعٍ شخصية أو ظروف اجتماعية- سياسية، بحيث تؤدي إلى نوع من الملل والرتابة من الزمن الحالي؛ وتربّي فكرة العودة إلى الماضي، وذكرياته الحلوة، وتنتهي بدراسة مقارنة لهذه الظاهرة بين عبدالوهاب البياتي ومحمدرضا شفيعي كدكني.

www.SID.ir

Archive of SID

عزالدين المناصرة، حياته وشاعريته

عزالدين المناصرة من مواليد (١٩٤٦/٤/١١)، بمحافظة الخليل الفلسطينية؛ حصل على شهادة (الليسانس) في (اللغة العربية، والعلوم الإسلامية)، ١٩٦٨، ودبلوم الدراسات العليا، في النقد والبلاغة، والأدب المقارن، عام ١٩٦٩، في (كلية دار العلوم، جامعة القاهرة). ثم أكمل دراساته العليا لاحقاً، وحصل على (شهادة التخصص) في الأدب البلغاري الحديث، وحصل على (درجة الدكتوراه) في النقد الحديث والأدب المقارن في (جامعة صوفيا)، ١٩٨١، وكانت أطروحته، تحت عنوان: (شعرية المقاومة في الشعر العالمي الحديث) (باللغة البلغارية)، محفوظة في مكتبة كيريل وميتودي، صوفيا. كذلك حصل لاحقاً على الرتبة الأستاذية (بروفيسور) في جامعة فيلادلفيا، عمّان ٢٠٠٥؛ عاش متنقلاً في البلدان المختلفة مثل فلسطين، مصر، الأردن، لبنان، بلغاريا، لبنان، تونس، الجزائر "قسنطينة"، الجزائر "تلمسان"، الأردن؛ ومن مجموعاته الشعرية: يا عنب الخليل، القاهرة/ الخروج من البحر الميت/ مذكرات البحر الميت/ قمر جَرَشْ كان حزيناً/ بالأخضر كفّناه/ جفرا/ كنعانيا ذا/ لالاّ حيزيّة/ رعويّات كنعانية/ لا أثق بطائر الوقواق/ لا سقف للسماء. عزالدين المناصرة شاعر إشكالي لا تتأتى إشكاليته من تكوينه الأدبي والمعرفي لكونه شاعراً وناقداً وآكاديمياً حسب، بل من طبيعة شعره وكيفيته الفنية، إذ يبدو شعره للوهلة الأولى صلباً وخشناً يخلو من السلالة اللغوية والمرونة الإيقاعية وجماليات التصوير، لكنه حين تنجح القراءة بصبرها الضروري في الانتماء إلى فضاء هذا الشعر وتقاليده ورؤاه والانشغال الحميمي بخصوصيته الإشكالية، ستكشف بسهولة ورحابة خطابه وفرادته وسيبادر بمتعة لذائذه قبل أن يبادره باحتمالاتها وتأويلاتها (عبيد، ٢٠٠٦م: ٦).

الاغتراب لغة واصطلاحا

الاغتراب هو الابتعاد عن الوطن، ومعنى غَرُبَ: ذَهَبَ، ومنها الغربة والابتعاد عن الوطن؛، فبذلك ترد الكلمة العربية «الغربة» في المعاجم العربية؛ لتدلّ على معنى النوى والبعد، فغريب أي بعيد عن وطنه، والجمع الغرباء، والأنثى غريبة؛ وأغرباء هم الأباعد؛ فالكلمة تدلّ على معنيين: المعنى الأول: يدلّ على الغربة المكانية، والمعنى الثاني يدلّ على الغربة الاجتماعية (ابن منظور، ١٩٩٠م: ١٢٩). هناك استعمال آخر لهذا المصطلح، وهو يأتي في سياق «العزلة[1]؛ وهو

1. Isolation

www.SID.ir

Archive of SID

أكثر ما يستعمل في وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرد[1] وعدم الاندماج النفسي والفكري في المجتمع، ويرى بعض الباحثين في ذلك نوعا من الانفصال عن المجتمع وثقافته (ابن منظور، ۱۹۹۰م: ٤١)؛ وهكذا فإن شعر الحنين والاغتراب كان يعبّر عما تجيش به النفس من أحاسيس ومشاعر، وقد انبرى شعراء الحنين والاغتراب يعبّرون عن شدة حنينهم لأوطانهم ومجتمعاتهم أصدق تعبير (الشعراوي، ۲۰۱۱م: ١٤). يثير الاغتراب في النفس الحنين الشديد لما يفتقده الإنسان وقد يرتبط مفهومه بالسياق النفسي الاجتماعي؛ إذ يرى محمود رجب ضرورة ربط الاغتراب بالمشاعر النفسية، وليس بالبعد المكاني فقط؛ فيذكر أن كلمة الاغتراب: «تعني كما تقول معاجم اللغة العربية على اختلافها النزوح عن الوطن، أو البعد والنوى، أو الانفصال عن الآخرين، وهو معنى اجتماعي، بلا جدال فيه كذلك هو أن مثل هذا الانفصال لا يمكن أن يتمّ دون مشاعر نفسية، كالخوف أو القلق والحنين» «الشعراوي، ۲۰۱۱م: ٤١». إن الغربة في معناها اللغوي هي العزلة والابتعاد والهجر والمفارقة، وفي معناها الاجتماعي، الانسلاخ عن الواقع الفاسد والاستياء منه والعداء والتصدي له؛ بحيث يبدو له هذا الواقع وكأنه كائن متجمد يتخبط في أوحال تلتصق بها الأقدام فلا تستطيع هذه تجاوزهاو الخلاص منها؛ وليست الغربة بهذا المعنى الأخير تؤدي وظيفة سلبية تبعد صاحبها عن المشاركة في تحمل المسؤولية وأعباء الحياة؛ كما تجعله عديم التأثير في الغير (قميحة، ۱۹۸۱م: ۳۹۵)؛ فهذا نجد الغربة ذات وجهتين: الإيجابية والسلبية، والإيجابية منهما هي التقاط وكشف للنشاطات الإنسانية الجوهرية وتمزيق للبراقع المهلهلة؛ وخلاصة القول إن الاغتراب يعدّ ظاهرة اجتماعية تتجذر في العلاقات الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولا حيلة لتحديد أطر هذه الظاهرة إلّا في حال دراسة الظروف التي أثرت في نشوء الاغتراب عند إنسان أو شاعر أو تسبّبت في أن يكون إنساناً أو شاعراً مغتربا.

الاغتراب في الشعر

كان الإنسان القديم في الأغلب الأعمّ مرتبطاً بجماعة، سواء كانت هذه الجماعة هي القبيلة أو المدينة، وكان العقل الجماعي في هذه الحالات هو صاحب المنطق والكلمة الأخيرة، وفي كلّ هذه الحالات لم تظهر الذات المفردة باهتمام خاص، حتى إذا كنا في القرن العشرين ـ ولأسباب

1. Detachment

www.SID.ir

Archive of SID

يطول شرحها ـ أُتيحت الفرصة للذات أن تبرز وكان عليها عندئذ أن تواجه نفسها أولاً وأن تواجه العالم الخارجي ثانياً؛ وكلما نمت الذات وقوي الشعور بها زادت محنتها؛ لأنها لكي تكون المعيار الحقيقي للوجود لا بدّ أن تكون منطقية مع نفسها (علي، ١٩٨٤م: ٣٥٧). بدأ اغتراب امرئ القيس بكره والده إياه مقروناً بالألم والغضب، فانفصل عن جوّه الأسري وتعمّقت هذه الهوّة بينه وبين واقعية بيئته وختاماً أدى إلى اختيار ضرب متمايز من الحياة عما تعوّد عليه الملوك والسادة؛ فشعره صورة كاملة من إنسان مغترب بمعنى الكلمة هارب من مجتمعه. كما نرى ظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي وفي حديثه عن غربته في سياق قصائده التي تتدفق بالحزن والأسى، فيفرط في الفخر بنفسه إلى درجة تقترب من النرجسية، كما نرى في قصيدته التي رثى فيها جدته، وهو مغترب بعيد عنها:

أحنُّ إلى الكأسِ التي شربتُ بها ... وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمَّا
بكيتُ عليها خيفة في حيويتها ... وذاقَ كلانا ثكل صاحبه قدما
ولو قتل الهجرُ المحبين كلَّهم ... مضى بلدٌ باقٍ أجدت له صرما
تغربَ لا مستعظماً غيرَ نفسه ... ولا قابلاً إلا لخالقه حكما
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجةٍ ... ولا واجداً إلا لمكرمةٍ طعما

(المتنبي، ١٩٩٧م: ج٤، ١٠٣ و١٠٩)

يقصد الشاعر بالكأس في البيت الأول، الموت ويقول: لا أحب البقاء بعدها وأحب التراب لأجل مقامها في التراب، وما ضمه التراب يعني شخصها أو كل مدفون في التراب وحبه التراب يجوز أن يكون حبا للدفن فيه ويجوز أن يحب التراب لأنها فيه؛ ويضيف: كنت أبكي عليها في حياتها خوفا من فقدها وتغربت عنها فثكلتها وثكلتني قبل الموت؛ ويقول: لو كان الهجر يقتل كل محب لقتل بلدها؛ وأجد بمعنى جدد يعني أن البلد كان يحبها لافتخاره بها ولكن الهجر إنما يقتل بعض المحبين دون بعض؛ ويذكر نفسه ويقول: إنه تغرب، لا يستعظم أحداً إلا نفسه؛ ولا يرى أحداً فوقه، ولا يرضى بحكم أحد إلا بحكم الله تعالى؛ وختاماً: لم يزل في تغربه سالكاً، وسط غبار الحرب، ولا يلتذ بطعم شيء إلا طعم المكرمة، وليس تغريه لجمع المال مع الذي والهوان. أما في الأندلس، فتتجلى ظاهرة الاغتراب أكثر فأكثر، على حد يتصور أن الاغتراب موجود وحاضر عند جميع الشعراء حيث أجادوا في استخدامه وتوظيفه وقد عبّروا بواسطته عن مشاعرهم؛ «كانت هناك الكثير من القصائد التي تصور الغربة عن الوطن وما يرافقها من حنين اليه جعلتنا نظن أن الشعر الأندلسي لم يكن إلاّ للغربة

www.SID.ir

Archive of SID

والحنين، رغم وجود الفنون والأغراض الأخرى» (محمد، ۱۹۸۳م: ۵۷).

هـل تـذكرونَ غريبـاً عـادهُ شـجنٌ مـن ذكـركم وجفـا أجفانَـه الوسـنُ؟
يـا ويلتـاه أيبقـى في جوانحـهِ فـؤادهُ وهـو بـالأطلال مـرتهنُ؟

(ابن زيدون، ۱۹۷۵م: ۳۲)

إن رؤية الشاعر في أحداث مجتمعه ولقصده في أن يكون في موقع الريادة والمسؤولية والتحدي والمجابهة، بناء على هذا فإن ثورة الشاعر تحمله على البتعاد والهجر والمفارقة، تجعله يرحل ويفتش ويبحث، ويتسبّب في أن يمارس مهامّه الإنسانية من أجل التغيير والبعث والتجدد؛ حتى لا يكون موجوداً ديناميكياً يتقهقر يوماً بعد يوم ويتراجع عن حقوقه وحقوق شعبه ومواطنية دو أي إحساس بالمسؤولية، فاقداً شعوره ورسالته التي عليه أن توصّلها إلى الشارع. لقد أدرك الشعراء العرب المعاصرون بأنهم لن يتمكنوا من إحداث التغيير المراد وتبليغ الرسالة المرجوة، إلا عن طريق وعي الذات وإدارك العالم المحيط بهم، هذا العالم المركب الذي يعيشون وقائعه وأحداثه رغماً عنهم (عقاق، ۲۰۰۱م: ۲۱٤)؛ إذن يتولّد الشعر بالغربة لدى الإنسان رغم أنه يعيش بين مئات الآلاف من الناس بين الملائين؛ فالحقيقة هي أن «الاغتراب» عالم يكتنفه التناقض ويعمّه الاحتجاج، وتتسع فيه ثغرات الخراب، وتؤطِّره المدينة بهالة من القوانين والأنظمة التي تحدّ من حرية الإنسان، وتكبل توقه إلى معانقة طبيعته السمحة التي تنشد بين البساطة والاطمئنان، فراحت العلاقات تتدهور وأصبح كلّ شيء يقاس بمعيار مادي، وأضحى الإنسان مغترباً في واقعه؛ إذ لم تعد العلاقات التي كانت تنبض بالوجدان حميمة دائمة، إنما احتواها التناقض والتذبذب، وأمسى القلق جوهر الأشياء في عالم متضاد يشكو الأرق والتبرم (علي، ۱۹۸٤م: ۱۹).

فإن رحلة الاغتراب عند الشاعر المعاصر هي في صميمها رحلة البحث عن الذات والمجتمع، داخل ركام حضاري مميت، فقَدَ كلّ مقوّمات الحياة، فالذات منشطرة ومنجذلة بين عالَمَينِ، عالم يتراجع ويتقهقر باستمرار، وهو الواقع العربي الراهن، وعالم يتقدم آتياً من المستقبل؛ ولكنه غامض، غير واضح المعالم؛ فمن هذا الانشطار والانجذال، أو ما يمكن أن ندعوه بالوعي المنقسم، نشأ الاغتراب عند شعرائنا (عقاق، ۲۰۰۱م: ۲۱۹)؛ كما نلاحظ ظاهرة الاغتراب بشكل واضح عند شعراء المهاجر الشمالية والجنوبية؛ الذين تركوا مسقط رأسهم لأسباب مالية وسياسية وغيرها من الدوافع؛ فاغتربوا وعاشوا في بلد آخر (حاجي زادة وفضامرادي، ۱۳۹۰هـ: ٤٦).

www.SID.ir

Archive of SID

أقسام الاغتراب

وفقا لأهم الدراسات الموجودة التي تناولت قضية الاغتراب وبعد إمعان النظر فيها، يمكننا أن نجعلها في ستة محاور، وهي:

الاغتراب الاجتماعي[1]

يراد به شعور الفرد بالوحدة والفراغ النفسي، والافتقاد إلى الأمن والعلاقات الاجتماعية الحميمة، والبعد عن الآخرين حتى وإن وُجد بينهم، ويصاحب العزلة الشعور بالرفض الاجتماعي والانعزال عن الأهداف الثقافية للمجتمع، والانفصال بين أهداف الفرد وبين قيم المجتمع ومعاييره، وغالبا ما يستخدم هذا المصطلح عند الحديث عن الاغتراب في وصف وتحليل دور المفكر أو المثقف الذي يغلب عليه الشعور بالتجرد حالة عدم الاندماج النفسي والفكري بالمعايير الشعبية في المجتمع، وهؤلاء الذين يحيون حياة عزلة واغتراب، لا يرون قيمة كبيرة لكثير من الأهداف والمفاهيم التي يثمنها أفراد المجتمع (خليفة، ٢٠٠٣م: ٣٩).

الاغتراب الذاتي[2]

تبدأ فكرة الاغتراب عن الذات بعدم الانتماء إلى المجتمع، فالفرد يغرّب نفسه عن طبيعته الجوهرية ويصل إلى أعلى قمم التطرّف في التنافر مع ذاته، فالانتماء ممكن الوصول إليه على مستوى العلاقات بين الأشخاص فقط من خلال الوحدة مع البنية الاجتماعية، ويفقد انتماءه، وحينما يحدث ذلك فإن الفرد لا يعود ممتلكا لناصية جوهره، وهكذا فإنه يغرب ذاته عن طبيعته الجوهرية أو يصبح مغترباً عن ذاته (شاخت، ١٩٨٠م: ١٠١)؛ فإذا استخدم الإنسان أفعاله وسيلة لتحرير نفسه والتعرف عليها كان إنساناً سوياً، وكان الاغتراب بهذا المعنى أمراً مقبولاً، أما إذا استبعدته أفعاله وخضع لها كأنها شيء آخر تماماً، فتنفصل عنه بالكلية، فهو بذلك إنسان مريض ويكون الاغتراب بهذا المعنى مرذولاً (رجب، ١٩٦٥م: ٩١).

ينشأ اغتراب الذات عن التناقض بين الإنسان وبين العالم الخارجي، بين الواقع والخيال، بين ما هو عليه وبين ما يحلم به، بين ما يملكه وبين ما يطمح إليه، بين نظام العالم ونظام تفكيره، بين عالم الآخرين ونظامه الخاص، فينفصل المرء عن ذاته الإنسانية الحقة أو عن

1. Social alienation
2. Self-alienation

www.SID.ir

Archive of SID

طبيعته الجوهرية، وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير فكرة الفقد الكلي لإنسانية الإنسان (السيد، ٢٠٠٣م: ٤٨)؛ يعكس الاغتراب الذاتي للإنسان مستويين متباينين: فالمستوى الأول يمثل الشخص الذي يجاوز المجتمع ويتحرّر من حلم الجماعة وقيمتها التي قد لا تتلاقى وقيمته الإنسانية، فهو شخص استطاع الاكتفاء بذاته، والمستوى الثاني فيمثله الشخص المهمش اجتماعياً، والذي لا يستطيع أن يجسّد ذاته داخل المجتمع ولا يمتلك أدوات التعامل معه، لينتهي به الأمر إلى اغتراب ذاتي؛ إذن يكمن الاغتراب الذاتي في وعي المغترب لحالته الاغترابية، كشرط لتحقق الاغتراب الذاتي، فالإنسان المغترب يعي بصورة فعلية التباعد بين هويته وما يبتغي أن تكون عليه تلك الهوية.

الاغتراب المكاني

يقصد بالاغتراب المكاني ذلك الإحساس الذي يعتري الشاعر ويسعى إلى تصويره عندما يتنقل من مكان إلى مكان، متذكراً تلك الأمكنة ويعبر عن مشاعره الفرحة والحزينة وأحاسيسه عنها بالغربة؛ راجياً إعادة تجربة تلك الذكريات التي عاشها في وطنه، واصفاً هزائمه وخيبة آماله وطموحاته.

الاغتراب الروحي

تشعر الذات في هذا النوع من الاغتراب بعدم الرضا عن واقعها الذي ألمّ بذاتها بعدة اغترابات ليشعر بانفصاله عن المجتمع وما أصابه من تدهور بغيض؛ فيتطلّع تبعا لذلك إلى الانعتاق من العالم المحيط بأسوار من صنع نفسه، عندما تصطدم بواقعها الذي يكون خارجاً عن إرادته؛ والشاعر بذلك يريد أن يؤكد غربته وضياعه؛ «بل اندثاره في هذه السوق التي هي رمز للواقع الظالم المتحكم الذي لا تقيم وزناً للأعراف والمواثيق والقيم التي رأينا فيها تكالب الشرّ على الخير، لذلك فإنه آثر الاغتراب عن هذا الواقع والانسلاخ عنه برغم كلّ السلبيات التي قد تنتج ذلك الفعل الذي أملاه اليأس في لحظة من لحظات الصراع الداخلي العنيف بين الواقع والأمل وبين الكائن والممكن» (إسماعيل، ٢٠٠٧م: ٢٨١)؛ انطلاقا من هذا فالشاعر يرى هذا الواقع بكلّ أبعاده، إلّا أنه يرفض أن يكون دمية تحرّكها الأهواء والمصالح والأطماع، ويفضّل أن يكون طائراً مغرباً خارج سربه ولو أدّى به التغريد إلى الغربة والضياع (قميحة، ١٩٨١م: ٤٠٦).

www.SID.ir

Archive of SID

الاغتراب السياسي[1]

يعدّ الاغتراب السياسي واحداً من أكثر أنواع الاغترابات شيوعاً في المجتمع المعاصر بوجه عام وفي المجتمعات العربية بوجه خاص؛ وتبدو مظاهره وتجلياته في العجز السياسي الذي يشير إلى أن الفرد المغترب ليست لديه القدرة على أن يصدر قرارات مؤثرة في الجانب السياسي، كما يفتقد إلى المعايير والقواعد المنظمة للسلوك السياسي، بمعنى آخر يشعر المرء بأنه ليس له دور في العملية السياسية، وأن صانعي القرارات لا يضعون له اعتباراً ولا يعملون له حسابا. يقصد بالاغتراب السياسي شعور الفرد بالعجز إزاء المشاركة الإيجابية في الانتخابات السياسية المعبرة بصدق عن رأي الجماهير، وكذلك الشعور بالعزلة عن المشاركة الحقيقية الفعالة في صنع القرارات المصيرية المتعلقة بمصالحه، واليأس من المستقبل، على اعتبار أن رأيه لا يسمعه أحد، وإن سمعه لا يهتم به ولا يأخذ به (خضر، ١٩٩٨م: ٤١).

الاغتراب الاقتصادي

إن الظروف الاقتصادية وتطورها بالفعل قد أدت الى الاغتراب الناتج عن اضطراب في المعيار الاجتماعي الأخلاقي، الذي انبثق عن التحولات الإقتصادية والتي طرأت على المجتمع بصورة فجائية، حيث أدت الى قلق وبؤس الفرد في مجتمعه؛ هذا بناءً على أن الإنسان يعيش مع الإنسان ويتفاعل معهم ويرتبط بهم بعلاقات اجتماعية، تؤثر في صحته النفسية تأثيراً إيجابياً وسلبياً وفق نوع العلاقات، فإذا كانت علاقاته بهم طيبة شعر بالأمن والطمأنينة، وإذا كانت علاقاته بهم سيئة يحس القلق والاضطراب وتعرض لسوء التوافق والشعور بالعزلة والعجز والاغتراب» (خليفة، ٢٠٠٣م: ٨٥)؛ فعندما وصل الإنسان إلى حالة لا يملك فيها شيئا وما يستهلك، أو تعرض لحالة الفقر والحرمان؛ فهذه الظروف تؤهله للعزلة النفسية والاجتماعية وتجعله عرضةً للاغتراب الاقتصادي.

الاغتراب في شعر المناصرة

تنصّ جميع الدراسات الموجودة حول ظاهرة الاغتراب على أنها تحصل إثر شعور الإنسان بأنه لا ينتمي إلى الظروف الراهنة في مجتمعه؛ انطلاقاً من هذا نلاحظ حضور الاغتراب في شعر المناصرة نتيجة لرفض ما يراه في المجتمع الفلسطيني، بحيث لا تنطبق مجريات الأحداث في

1. Political Alenation

www.SID.ir

Archive of SID

مجتمعه مع طموحاته ورؤاه الفكرية والعقائدية؛ مما جعلته شاعراً أو كائناً غريباً عن ذاته أو عن مجتمعه في أنه يعيش وجوداً زائفاً سقط فيه رغماً عنه، فتسبب ذلك في شعوره بعدم انتمائه إلى هذا الوجود، بل عُدّ تلوُّن شعره بحالة الاغتراب من أبرز معايير تجربته الشعرية.

إذا أردنا أن نبحث عن أبعاد تجربة الاغتراب عند عزالدين المناصرة من خلال حياته وكتاباته الشعرية على مدى عمره، نجد أنه قد مرّ بعدة أنواع من الاغتراب، كل منه له طبيعة خاصة وصفات مميزة وفقا للمراحل التي يجتازها الشاعر.

يعبّر موضوع النفي بمعنى الغربة عن تجربة الشاعر الذاتية محبوكة بالتجربة الجماعية لشعبه؛ وصيغ الحنين إلى وطنه متدفقة بالعاطفة الجياشة والحبّ والثورة على ما حرّمه من بلده؛ فالقصائد التي كتبها بعد مرور سنين على وجوده بالمنفى يصف تعلقه الشديد بوطنه ويلوم هؤلاء الذين أرغموه على العيش بالمنفى.

الاغتراب الاجتماعي

لعلّ من أقدم وأبرز جذور الاغتراب عند المناصرة يعود إلى ما يمكن أن يطلق عليه الاغتراب الاجتماعي، ويتمثل في موقف المجتمع الفلسطيني وطقوسها وتقاليدها وموقف الشاعر منها؛ ولم يكن من الممكن أن تحسم أمثال هذه القضايا الاجتماعية بين يوم وليلة، بل تحتاج إلى وقت طويل.

وهنا يدخل المناصرة في حالة عدم توافق أو الانفصال بين ما هو واقع عرفا اجتماعيا، وبين حالة الإدراك النفسي للقيم البالية؛ وتزداد حدة الإدراك النفسي، أو الرؤية النفسية إن جاز هذا التعبير.

> إنني إبنُ أبِي،/ واسألوا ليلةَ الزحفِ في عريشةِ التين/ أرسلتْ لي أمي مكتوباً، قالتْ فيه حرفياً:/ إنها تعشقُ في هذه الأيامِ، ولداً يشبهني/ تمنيتُ أن أعودَ إلى رحمها/ بعد أن قطعتُ المسافةَ الأولي/ من بابِ الأسباط... إلى بولاقِ الدكرورْ/ أمكنةٌ لا تعنيكم إلّا في الأزمات./ وُلدتْ أمي في الكرملِ العالي/ ولدَ أبي، قربَ سدودِ الملح،/ في قاعِ العالم، أي، واللهْ/ أما أنا، فسقطتُ فجأة، قربَ عوسجةِ الماء/ كانتْ أمي، عائدةً من غابةِ الحطّابين/ ترجّيتُها كتلميذ، أن تلدَني قربَ عوسجةِ الماء/ في منتصفِ المسافةِ المترددة/ حيثُ الذئبُ والدمُ وإخوتي/ تمنيتُ أن أصلَ الكرملَ المعشوشب/ بحقولِ الملح، في البقعةِ الواطئة/ قالوا لي نصفكَ الآخر، سيقفُ كالجدار/ عندها هتفتُ بأعلى يقيني: / إنني ابنُ أبي (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ٢٣٧-٢٣٨)

www.SID.ir

Archive of SID

يشرح الشاعر في هذا النوع من الاغتراب ومن خلال تقنية القناع حالته التي سقط في بئر عزلتها، فقد التزم الانعزالية والبعد وذلك لأنه عاجز عن تحديد مسار الأحداث أو تحديد النتائج التي قد تحدث نتيجة لهذه المتغيرات، فانسحب من المجتمع؛ فمن أهمّ أسباب اغترابه الاجتماعي: دكتاتورية الواقع التي تخرج به من دائرة الانتماء إلى اللا انتماء الفعلي، حيث اجتمع الذئب «الكيان الغاشم المحتلّ» ونزيف الدم الفلسطيني البريء وإخوته في أرض واقعه إلى أن دمّرها حضارياً، ويهدف إلى زوال هويته بحيث نصفه في مكان ونصفه الآخر في مكان آخر؛ هذا هو الاضطهاد الإسرائيلي الذي يواجهه الشعب الفلسطيني في كلّ وقت وحين، ويتوارى من وراء الأسباب التي تتسبّب في اغترابه في المجتمع ويجبره على أن يصرخ ويعلن أنه ابن أبيه، أي هو من أصل فلسطيني؛ عامة قد نما هذا النوع عند الشاعر بعد انتقاله من قريته إلى المدينة؛ لذلك نجده «الشاعر» دائم الهروب والحنين إلى القرية التي تمثّل عنده النموذج المثال الذي تتمركز فيه جملة العادات والتقاليد التي عرفها الشاعر ونعرفها نحن جميعا؛ وقد دخل الشاعر الواقع السياسي مهزوماً بهزائم واقعه وانكساراته المصلوبة على أبواب واقعه.

> يا هذه المدنَ السفيهة، عندك الخبرُ اليقينْ/ لو كنتُ أعرفُ أن نارك دون زيتْ/ لو كنتُ أعرف أنَّ مجدَك من زجاجٍ، ما أتيتْ/ أنت التي خلَّيتِني قمراً طريداً دون بيتْ/ إن الذين أتيتهمْ، صبغوا الوجوه/ وتلفعوا بالصمت في ذاك البلدْ/ وأنا أريد بني أسدْ/ قتلوا أبي... واستأسدوا/ يا هذه المدن السفيهة، يا مقابرُ يا فجاجْ/ أسقيتني ملحاً أُجاجْ/ والزهوُ قد موّهتِه وولغتِ فيهْ/ بيني وبينك خيط ودٍّ، فاقطعيه... اقطعيهِ... اقطعيهْ (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ٢٣٧-٢٣٨)

أول ما في هذه المواجهة، إماطة اللثام عمّن صبغوا وجوههم، وتلفعوا بالصمت، فلم ينصروا مظلوماً؛ وقد عبر الشاعر عن التشرد بعبارة «خليتني قمراً طريداً، دون بيت»؛ لإحداث المفارقة بين ما هو كائن، وما ينبغي أن تكون، هو أن يظلّ القمر مطلاً على كلّ بيت، وما ينبغي أن يكون، فما هو كائن أن القمر صار طريداً من غير بيت؛ ويحكي الراوي كيف أن المدن السفيهة، قتلت أبا الشاعر، في إشارة إلى مقتل ملك كندة، والد الشاعر امرئ القيس، ثم استأسد القوم عليه واستضعفوه، وسقوه الملح الأجاج؛ وذلك إشارة إلى ما نزل بالشعب المغلوب على أمره، من مرارة العيش وعلقم الحياة، ويختم الشاعر هذا المقطع بدرجة فيها تصعيد في المواجهة عندما يطلب من تلك المدن أن تقطع الودّ الذي بينه وبينهم (عبيدالله، ٢٠٠٦م: ٣٤).

www.SID.ir

Archive of SID

يقول المناصرة إثر الهزائم المتلاحقة، والتي ظلّ فيها هذا الشعب متأهباً للتشرد، إثر كلّ هزيمة وكلّ نكبة:

رجعتُ من المنفي/ في كفِّي خفُّ حُنَينْ/ حينَ وصلتُ إلى المنفى الثاني/ سرقوا مني الخفّينْ/ ألا لا أقول الذي/ جعلَ الريحَ، تبكي، تقهقه، ثمّ تموءْ/ ألا لا أقولُ انتهيتُ، فما زلتُ في غربتي/ مرتعاً للقوافل، ما زلتُ بابَ لجوءْ

يصف الشاعر في هذا المقطع عودته من المنفى وهو خائب صفر اليد؛ ويقول: عندما وصلت إلى المنفى الثاني سرقوا آمالي وبقيت وحيداً كأنني لا أملك شيئاً، فإنها الخسارة تلو الأخرى؛ وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي يعيشها، يؤكد على صموده وبقائه على أصوله حين يقول: لا أحكي عن شيء يتسبب في بكاء الريح أو قهقهتها، وذلك خوفاً من إمحاء آثار قدميها للقوافل، عندما تمطر السماء، لأنه يشير إلى سرقة خفَّيه، كما يستمر في القول: انتبهوا، لا أقول انتهيت؛ لا شك أن هذه العبارات تثير مشاعر القرّاء والمواطنين، ويبعثر الحيوية والنشاط عندهم، حينما يدلي الشاعر بدلوه ويؤكد بصراحة على أنه مازال حياً ولم ينته بعد، ويتابع المشوار حتى لحظة الفوز والنجاح: فما زلت في غربتي مرتعاً ومكاناً خصباً للقواقل والركاب ولم أزل باباً للجوء والرجاء والأمل.

الاغتراب الذاتي

نشأ هذا النوع من الاغتراب عند المناصرة عندما وجد في نفسه وذاته صراعاً مليئاً بالتناقضات مع مجتمعه، فسعى إلى أن يتجاوزه ويكتسب حريته، ويخلق لنفسه عالماً قائماً على الهدوء والتوازن، ومن ثمّ يعيش حياة يرضيها؛ فهو يقول:

في الليل يرتدّ البكاء المرّ منهمراً إلى صدري/ وطني يضيع ولا أقول:/ آهٍ... من الليل الطويل/ لو كنتُ أملك أن يرُدّا/ ذهبَ الذين أحبهمْ وبقيتُ مثل السيف فرداً (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ٦٨-٦٩)

هكذا يبقى المناصرة وحيداً فردا كالسيف ولم يستسلم ولم يرضخ لكل ما يملي عليه مجتمعه من قيم اجتماعية وسياسية سائدة وشائعة فيه؛ لقد ذهب الذين أحبهم الشاعر ووافتهم المنية جميعاً دون أن يراهم الشاعر.

غريب الدار يا حبّي، غريب الدارْ/ يظلّ يلوب في البلد البعيد على حدود النار/ رياحٌ قد تهبّ تذيب أفئدةً جليدية/ وحول مقابر الموتى من الأحياء/ تظلّ

www.SID.ir

Archive of SID

تحوم طول الليل، جنية/ تغنّى الليل، أحلام الثكالى... والدجى المسكونْ/ وتعلن من أطالوا الليل يا حبرون!!! (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ٥٠-٥١)

إنه مازال غريب الدار والديار؛ نعم إنه يدفع ثمن ما اختاره، وهو ثمن غال دون أدنى شك؛ وهو فقدان نفسه، ما يبرز بجلاء وعيان في هذه القطعة، حيث يقول: رياح قد تهب وتذيب قلوباً جليدياً لا شعور فيها، وحول مقابر الموتى من الأحياء، أحياء لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم آذان لا تسمع؛ إنهم أموات متحركون؛ يأكلون ويشربون كالأنعام؛ هذه الرياح تهب على هؤلاء الناس لعلما تدمر عن بكرة أبيهم؛ يعكس هذا المشهد المأساوي عند المناصرة قياسه لمعايير الناس الذين اجتمعوا حوله، ويصور حالة الشاعر في هذا الجمع وبينما هو لا يتكلم عن نفسه في هذه القطعة كأنه كائن بلا اسم أو هوية؛ أو هو لا ينتمي إلى هذه الحشود من الناس، وهذا هو الذي يكون إهداراً لقيمته وحقيقته الإنسانية.

الاغتراب المكاني

يقول المناصرة عن شعرية الأمكنة: «الأمكنة جزء من عذاباتي الشخصية، فأنا لست من زوار الأمكنة، بل أجبرت على التفاعل معها سلباً وإيجاباً، كما أن السبب الرئيس في هيمنة شعرية المكان على شعري، أنني بدأت من ظاهرة (عذابات الفقد والمنع القسري)، ولو كان مسموحاً لي أن أعيش في (مريام الشمالية)، لما كتبتُ عنها أية قصيدة، لأنّ الحياة أجمل من قصيدة؛ لقد فجرت ذاكرة المكان، عندما حرّموني منه، وعندما تنقلت بين أمكنة العالم، عشتُ فيها، وتفاعلّت معها مجبراً، لأنني لم أكن من زوار هذه الأمكنة» (عبيدالله، ٢٠٠٦م: ١٩٠).

تسبّبت قضية فلسطين الرازحة تحت نير الاحتلال ومن ثم عدم السماح بالشاعر لحضوره مرة أخرى في مسقط رأسه في نشوء الاغتراب كقلق إنساني بسبب ما يعيشه من ظروف متطورة يمر بها شعبه، نتيجة للحروب والصراعات الطويلة في سبيل تحريره؛ كما قد لحق ذلك بالآخرين من المفكرين وأدباء القرن العشرين الذين باتوا يعانون من اليأس والقلق.

لو أنني قمرٌ في الشامِ مرتحلٌ،/ لو أنني قمرٌ/ لو أنني حجرٌ في الشامِ منغرسٌ،/ لو أنني جبلٌ،/ تشتاقه الأنواءُ والأمواجُ والسفنُ/ لكنني في بلاد الروم منزَرِعٌ/ أبكي على وطنٍ، قد خانه الوطنُ (المناصرة، ٢٠٠٦: ج١، ١٦).

تيقن المناصرة بأن رفضه وتمرده للواقع الراهن وللإطاحة بالمحتلين لوطنه قد ذهب أدراج الرياح، ولذلك وجد نفسه غريباً أكثر فأكثر بعد ما وعى المأساة ودرامية الواقع، فحاول أن

www.SID.ir

Archive of SID

يجد في نفسه ردّ فعل مناسب وفقاً لوعيه وقدرته؛ وأراد المكافحة والتحدي بطابع التمرد الفردي، قصداً إلى إثارة المشاعر والأحاسيس لمتلقي شعره، بناء على هذا وصف في هذه القطعة الشعرية حالته النفسية بأنه يرجو أن يكون قمراً يعرف بالإنارة والإضاءة في الدياجير والظلمات، هادياً الآخرين الذين يمشون من خلفه، ولكنه قمر مرتحل، يتنقل من مكان إلى مكان، ولا يسكن في حدود معين، ويستمرّ في القول والترجي في كونه حجراً منغرساً في الشام، أو جبل تميل نحوه المياهُ وأمواجُ البحر والسفن، يكرر كلمة الشام دلالة لانتمائه إلى بلاد الشام المتمثلة في مسقط رأسه فلسطين؛ يعبر الشاعر عن أسفه في أنه مترعرع في الروم بمشاعر حزينة، تكاد تضرم النار في أعماقه عندما تسكب عبراته في حرمانه من الوطن الذي قد خانه الوطن العربي ودسّ له شتى الدسائيس؛ والوطن الثاني هو البلدان العربية التي كانها أصيبت بالصمم أو في آذانها وقرٌ لا تسمع الأنين والحرقة والزجر من المواطن الفلسطيني.

لن يفهمني أحدٌ غيرَ الزيتون/ شجرٌ، كضفائرِ أمي يحميني/ من مطرِ الأيامِ
الصعبة/ أخضرُ أخضر، / مثل مياهِ خليج العَقَبة/ وشجاعاً صلباً، كان، كما الزيتونْ

شكل الزيتون إحدى مقومات وجود الإنسان الفلسطيني. يرمز هذا النبات باخضراره الدائم إلى الصمود والمقاومة المستمرة؛ كما نعرف قد غلب اقتران اللون الأخضر بالطبيعة الخضراء، وإنّ أهمية هذا اللون تبرز من خلال ارتباطه غالبا بالأمل والتفاؤل والعطاء والجمال والبهجة؛ وهو اللون الوحيد الذى إذا ما طغى على كلّ الألوان الأخرى فإنّ الانسان لا يحسّ بأى ضيق أو ملل. انتبه المناصرة إلى خارطة الطريق التي وضعتها المستعمرون، لتفريغ الأرض من أهلها، وذلك لتنفيذ خطتهم المبنية على النيل إلى الفرات، وتحويل الوطن الفلسطيني بأسره إلى مستوطنات إسرائيلية؛ بناء على هذا فإن توظيف عزالدين للزيتون يوحي ببقاء الشعب الفلسطيني العوامل صامداً راسخاً ولا تخلّ الظروف ـ مهما كانت ـ في إرادتها، ولا تثنيه عما يهدف إليه من تحرير الوطن؛ ويكافح ويقاوم مستعينا بالأمل، ويقظة الوعي، والرفض، والتحدي.

يمتلك الزيتون كثيراً من الرموز، كالصلح والخصب، والزكاء، والقوة والفوز، والجزاء؛ والتخذه الشاعر الفلسطيني رمزاً للوطن والمقاومة والصلح (روشنفكر وآخرون، ١٣٩٠هـ: ٥١).

يتخذ حبّ الوطن والتواصل معه مكانة عظيمة في شعر المناصرة كغيره من الشعراء؛ وكام لاحظنا، جعل الشاعر الزيتون ـ رمز الوطن ـ جنبا إلى جنب ضفائر أمه التي كانت عونا وحماية له في الضرّاء والبأساء؛ يوحي هذا الاقتران بأنه لا ينسى الوطن كما لا ينسى أيادي أمه البيضاء

www.SID.ir

Archive of SID

طوال حياته؛ ويستمر في القول ويحكي من مواصفات هذا الرمز للوطن أي الزيتون، قائلاً: إنه أخضر مثل مياه خليج العقبة أي السويس، وتشابه فلسطين الزيتون في الاصطبار والصلابة، وهذا يدلّ على أن حبّ الوطن عنده أكثر عمقا وارتباطاً، وتبقى روحه معلقة به مازال حياً يرزق.

الاغتراب الروحي

تتكون بنية الاغتراب الروحي عند المناصرة في تجربته الحياتية الخاصة إثر احتلال الوطن الفلسطيني؛ مما أدى إلى اضطراره على ترك الوطن والخروج منه؛ والحالة هذه وصلت إلى حدّ لم يسمح له بالمشاركة في حفلة العزاء والتأبين لأمه، فلم يتمكن من الحضور على جنازة والدته؛ «كأن على الشاعر الكنعاني أن يرسل عينة من دمعة الوفاء المهجورة، ليصار إلى تحليلها، ودراسة علاقة ملحها بالبحر الميت، وكمية ماء القدس فيها، وتكليف جهاز الاختبارات الوراثية، بتحديد نسبة عنب الخليل في غلوكز تلك الدمعة الإرهابية، وها أنذا أتقدم بهذه الوشاية طائعاً مختاراً فأعلن أن دمعة أبي كرمل فيها من ذلك كله، وفيها ما هو أكثر إنها عين عربية فلسطينية تفضل العمى على رؤية خوذة الاحتلال» (دحبور، ٢٠٠٨م: ٣٤٩).

تنشأ الاغتراب الروحي عند المناصرة نتيجة تراكم مجموعة من أنواع الاغترابات كالاجتماعي والعاطفي؛ فكما نلاحظه يقول:

> يا أمي تأخذني عيناكِ إلى أين:/ - شجرٌ كضفائرِ أمي يحميني/ مِن مطرِ الأيامِ الصعبةْ/ أخضر أخضر يغشاني،/ مثل مياهِ خليجِ العقبةْ/ وجذوري تنغل في قاعِ الكنعانيينْ/ كان فتى من ورقِ النعناعِ وصمتِ العنابْ (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ٤٥٧).

إن هذه القطعة تعبر عن أبرز مشاعر الأسى والشجن والحزن والحنين إلى أم حنون كانت ضفائر شعرها وقاية للشاعر في حين نزول مصائب وشدائد الدهر عليه كما يهطل المطر الغزير عليه؛ يصور الشاعر أغلى ممتلكاته وهو ضفائر أمه؛ كما يستمر بالقول والحديث عن اللون الأخضر، وهو دالّ على البهجة والفرح، ويرمز تكرار كلمة «أخضر» إلى تزايد البهجة والفرح أو الأمل والاستبشار؛ ويتحدث عن خليج العقبة «خليج السويس»؛ عندما يتحدث الشاعر عن جذوره المتصلة بـ«قاع الكنعانيين»؛ فالكنعان والأرض الكنعانية هما الأصل الدائم الحضور عند الشاعر، فإنه يقصد بها الأرض الفلسطينية الكنعانية التي تحمل دلالات البشارة والحيوية والرجاء للشاعر؛ ولعل الشاعر يصف نفسه عندما يقول: كان فتى من ورق النعناع وصمت العناب، فالنعناع باخضراره يدل على هذا الفضاء المليء

www.SID.ir

Archive of SID

بالتوسع والاستبشار، والعناب هو من الفصيلة الصدرية ولا يوجد لثماره أي أضرار جانبية؛ كأن المناصرة أراد أن يقول: إنه كان يتنعم في وطنه بفضاء يغلب فيه النقاء والسمو والصفاء؛ فهده الذكريات والأحزان الناشئة عن ضياع هذه النعم تشكل ثقل اغتراب الشاعر الروحي، وتتسبب في الانشطار الذاتي له؛ عاش المناصرة الغربة الروحية، وذلك بعد أن تراكم عنده الاغتراب الاجتماعي والعاطفي، ولكنه على الرغم من هذا، يسعى إلى العودة إلى الطفولة واسترجاع الماضي وبناء الوطن المسلوب عندما يقول:

آنَ يـا مـنزلاً عنـد بـابِ الخليـلْ أن نرمـي حجـراً في عـين المنفـى

يحكي الشاعر بشفافية بالغة عن طموحاته في الصمود والتخلص من المنفى، والانتصار على العالم الذي ظلّ بلا أمل ورجاء، حيث لا بدّ من كسر جدار الصمت وتجاوز الظروف الراهنة إلى مستقبل يخلو من التشرد.

الاغتراب الاقتصادي

لم يكن شاعرنا بعيداً عن الأجواء المأساوية التي كان يعيشها المواطن الفلسطيني؛ حيث كان يشعر بالقلق والاضطراب وتعرض لسوء الحياة المعيشية وتدهور الظروف في المجتمع؛ يشرح المناصرة فيما يلي حياته الصعبة الشبيهة أكثر فأكثر بمعيشة الفقراء:

ضاعَ ملكي/ في ذرى رأسِ المجيمر/ ضاعَ ملكي وأنا في بلادِ الرومِ أمشي، أتعثر/ ضاعَ ملكي/ أكلتني الغريظُ السوداءُ يا قبر عسيب/ جارتي إنا غريبانِ بوادي الغرباء (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ١٣)

استعار المناصرة هذه القطعة من معلقة امرئ القيس، حيث يقول:

قفـا نبـكِ مـن ذكـرى حبيـبٍ ومـنزلِ بسـقطِ اللـوى بـينَ الـدخولِ فحومـلِ

(امرئ القيس، ٢٠٠٤م: ٢١)

فيستدعي المناصرة بهذا الشكل الضياع والغربة والتشرد من حياة الملك الضليل، كما يصور الصورة الدرامية لحياته المليئة بالآلام والبعد عن الوطن والأهل؛ فلا يرى أمامه خياراً إلا الدعوة للثأر والانتقام وذلك بعد ما اعتراه اليأس والقنوط بخصوص تغيير الواقع المرير لشعبه الرازح تحت الاحتلال، كما فعل امرؤ القيس وعزم أن يستردّ ملك أبيه وكبرياءه التي ضاعت عنه.

إن الاقتباسات التراثية في صدر «يا عنب الخليل» مفاتيح ضرورية لفهم الرؤية الشعرية في هذا الديوان، حصوصا تلك الاقتباسات المستمدة من موروث الملك الضليل ـ امرؤ القيس

www.SID.ir

Archive of SID

بن حجر الكندي ـ أروع ما اكتشف المناصرة من كنوز التراث، فقد وجد المناصرة في ملامح شخصية الملك الضليل، وفي أبعاد تجربته الحياتية والوجدانية والفنية ما يتراسل مع ملامح شخصية وأبعاد تجربته هو الخاصة، فكان الشعر موفقا في تصدير مقتبساته ؛ لأنها تلخص أهم بعدين من أبعاد رؤيته الشعرية في هذا الديوان؛ وهما الإحساس بالضياع الذي فرض عليه ولا يد له فيه، ثمّ إحساسه بثقل التبعية الملقاة على عاتقه ـ تبعية دم وطنه القتيل ـ دون أن يزورها؛ فنرى أن نغمة الإحساس بالضياع والنفي هي أعلى النغمات في هذا الديوان، تليها أو تواكبها نغمة الشعور بثقل العبء وفداحته (عشري زايد، ١٩٩٩م: ٤٤-٤٥).

اتخذ المناصرة شخصية امرئ القيس قناعاً للتعبير عن مشاعره الحزينة وأحاسيسه التي تفيد بأنه ضائع مشرد، بائس مسكين سلب العدوان الصهيوني مجده وسابق عزّه، حتى أصبح وطنه ضحية، وبقي الثأر هاجسه الوحيد كما كان عند الملك الضليل؛ فالقارئ لهذه الأشعار يشعر بالقدر المتزايد من التوتر الشديد وذلك من خلال الشعور بعدم الاطمئنان، إضافة من الإحباط والسأم؛ وذلك لأن الشاعر قد يشكو قلة إمكانياته بسبب الوضع الاقتصادي المزري الذي يعانيه جرّاء حياته المليئة بالمأساة والفوضى والاحتقان؛ كما يقول الشاعر: «إنا غريبانِ بوادي الغرباء»؛ تثير هذه العبارة مشاعر الاغتراب لدى الشاعر بأعلى درجة، وتشير إلى خضوعه لما يسود على المجتمع من عدم الاستقرار والاضطرابات؛ كما يستمر في القول قائلاً:

> لترسم صورة قلبي ودقاته بعد كلّ قصيدة/ تترجمُ لي فقرةً من جريدة/ كذلك تسألني عن بلادٍ بعيدةٍ/ وعن شاعرٍ ماتَ في الجاهليةْ/ وعن شاعرٍ ـ لا أقول اسمه الآن ـ/ عاشَ فقيراً، وما زالَ يكتبُ شعراً/ ويشربُ قهوتَه في الفضاء/ كذلك عن شاعرٍ في المقاهي يحوم/ وعن شاعرٍ عشقتْه النجوم (المناصرة، ٢٠٠٦م: ج١، ١٨٦)

يسعى الشاعر في هذا المقطع إلى أن يصور درامية أوضاع الراهنة، مشيراً إلى كافة التفاصيل؛ فيبدأ بالحديث عن جماعة من الشعراء تركوا كلّ شيء، وتجاهلوا ما يعانيه الشعب، فإن هؤلاء الشعراء لم يبذلوا قصارى جهدهم لتغيير الواقع، بل اقتصروا بالبكاء على الأطلال، كأنهم غير قادرين على القيام بكفاح أو المقاومة في ما يرونه من ضياع الوطن، وإنشاء دولة مصطنعة مسماة بالكيان الصهيوني؛ في سياق متصل، يرى البعض أن الشاعر لما قال: وعن شاعرٍ ـ لا أقول اسمه الآن ـ/ عاشَ فقيراً، وما زالَ يكتبُ شعراً؛ فإنه يقصد نفسه، «ومثل هذا الشاعر ليس متكسباً بالشعر، ولذلك سيظلّ فقيراً، وهذا الشاعر يشرب قهوته في الفضاء، وهو يعني الفضاء المجهول المفتوح أبوابه لهجرة إثر هجرة، وتشرد إثر آخر، ولا يطول الزمن

www.SID.ir

Archive of SID

بين الهجرة وأختها، إلّا بمقدار ما يشرب به فنجان القهوة (عبيدالله، ٢٠٠٦م: ١٣-١٤). هكذا يواصل المناصرة طريقه ليعلن ثبات قدميه في الذود عن معتقداته وآرائه؛ تشير عبارة «ما أزال» إلى أنه لا ينصرف قيد أنملة عن حقوقه وحقوق الشعب بخصوص القضية الفلسطينية، حتى وإن كان عليه أن يعيش حياة ضنكاً مليئاً بالأسى والحزن والحرمان، ولو عاش طوال حياته فقيراً صفر اليد؛ تبرز المقاومة والصمود عند عزالدين بالمعنى الكامل للكلمة في هذه القطعة الشعرية؛ كم من مقترحات سمعها لكي يترك ما يعتقده من الصراع والنزال لتحرير الوطن وبالمقابل يعيش حياة طرية رغيدة بعيدة عن الهواجس والمخاوف الجمة التي عاناها، ولكنه رفض كلها؛ عبّر المناصرة عن أعمق مشاعر الحزن وأعلن أنه شاعر مغترب لا يشقّ له غبار ولن يشابهه أحدٌ؛ لأنه كان يتمكن من حياة أفضل، نظراً إلى عبقريته في الشعر والنقد الأدبي والأدب؛ مرّت سنوات عديدة ولم يطلع نجمه لأنه حافظ على ما اطمأن به قلبه في الكفاح من أجل تحرير الوطن.

النتائج

نستنتج مما تقدم وبناء على السؤالين المطروحين في بداية المقال:

١. يعتبر الاغتراب حالة خاصة مميزة للإنسان في العصر الحديث، والسبب الرئيس في نشوئه هو فقد الحرية، سواء كانت حرية العيش أو حرية التعبير، أو ما شابههما؛ ورغم أنه كان موجوداً في العصور الماضية ويعبَّر عنه بالغربة والحنين إلى الوطن؛ وكان الشعراء العرب من القدما والمعاصرين حسب ظروفهم البيئية والجغرافية والاقتصادية والمعيشية عنوا عناية بالغة الاهتمام بهذه الظاهرة وعبّروا به عن مشاعر الحزن والشجن والمأساة، وعن كلّ ما يعانونه أو يعانيه شعبهم.

٢. لم تكن ظاهرة الاغتراب بعيدة عن دواوين الشاعر الفلسطيني الفذّ، عزالدين المناصرة الشعرية؛ بحيث يمكننا تسميته بالشاعر المغترب الكبير الذي تلوّن كثير من قصائده بلون الغربة والاغتراب والحنين؛ ويتجذر الشعور بالإغتراب عنده في عدم الرضى أو القناعة بالحالة التي يعيشها، فهو حالة من التناقض في وعيه وإدراكه؛ فإنه الشاعر البارز الذي أعطى للاغتراب اهتماماً مركزاً؛ وكما رأينا من أهم مظاهر الاغتراب عنده هو العزلة والشكوى والطموحية واستشراف المستقبل.

www.SID.ir

Archive of SID

٣. يلاحظ جميع أنواع الاغتراب في شعر المناصرة من المكاني والذاتي والروحي والاجتماعي؛ ويمكن القول إن أبرز أنواع الاغتراب في شعره هو المكاني، والسبب الرئيس لهذا الادعاء هو أنه يعيش منذ سنوات كثيرة خارج الوطن الفلسطيني؛ والمكانية هي من أبرز سمات الشعر المناصري، حيث لُقِّب بشاعر المكان الفلسطيني الأول، ولا يشَقُّ له غبارٌ بخصوص الظواهر المكانية المستخدمة في شعره.

٤. يجدر بالذكر أن الاغتراب عند المناصرة، لم يكن سلبياً أو بعبارة أخرى لم يخلّ بحياته، رغم معاناته الكثيرة والآلام والمصائب التي واجهتْه في حياته، والدليل على هذا الادعاء هو أن الفقد والحرمان للحرية جعلا شاعرنا من أبرز الشعراء الفلسطينين المقاومين؛ فالاغتراب قد أثار مشاعر شاعرنا وجعله مبدعاً بارعاً وشاعراً عملاقاً، حيث لا يمكن تجاهل انعكاس الاغتراب بشتى أنواعه في تجربته الشعرية، حيث جعلها ذات مغزى واعتبار.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. ابن زيدون (١٩٧٥م). ديوان. شرح وتحقيق كرم البستاني، بيروت: دار صادر.

٢. ابن منظور (١٩٩٠م). لسان العرب. ط٢، بيروت.

٣. أبوسنة، سعد منير (١٩٧٩م). الاغتراب في المسرح المعاصر. عالم الفكر، المجلد ١٠، العدد ١.

٤. أبونزال، نزيه (١٩٧٩م). جدل الشعر والثورة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٥. إسماعيل، عزالدين (٢٠٠٧م). الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار العودة.

٦. الأصفهاني، أبوالفرج (١٩٧٢م). أدب الغرباء. بيروت: دار الآداب.

٧. امرؤ القيس (٢٠٠٤م). ديوان. شرح عبدالرحمن المصطاوي، ط٢، بيروت: دار المعرفة.

٨. حاجم محمد، أحمد (١٩٨٣م). الغربة والحنين في الشعر الأندلسي. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد.

٩. حاجي زادة، مهين؛ فضا مرادي، علي (١٣٩٠هـ). غربت گزيني در شعر بدر شاكر السياب. فصلية لسان مبين، السنة ٢، العدد ٣.

١٠. حماد حسن، حسن محمد (١٩٩٥م). الاغتراب عند إريك فروم. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

١١. خضر، عبد المختار (١٩٩٨م). الاغتراب والتطرف نحو العنف «دراسة نفسية اجتماعية». القاهرة: دار غريب.

١٢. خليفة، عبداللطيف محمد (٢٠٠٣م). دراسات في سيكولوجية الاغتراب. القاهرة: دار غريب.

١٣. دحبور، أحمد (٢٠٠٨م). عزالدين المناصرة شاعر المكان الفلسطيني الأول. إعداد وتقديم يوسف رزوقة، الأردن: دار مجدلاوي.

١٤. روشنفكر، كبرى؛ قبادي، حسين علي؛ وزارع برمي، مرتضى (١٣٩٠هـ). گستره عناصر نماد واسطوره در اشعار سميح القاسم وحسن حسيني. فصلية جستارهاى زبانى، السنة ٢، العدد ٢، الصيف.

١٥. السويدي، فاطمة حميد (١٩٩٧م). الاغتراب في الشعر الأموي. القاهرة: مكتبة مدبولي.

www.SID.ir

Archive of SID

١٦. السيد، حسن سعد (١٩٨٦م). الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق (١٩٦٠-١٩٦٩). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٧. السيد، غسان (٢٠٠٣م). الاغتراب في أدب زكريا تامر. مجلة الموقف الأدبي، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، العدد ٣٥٢.

١٨. الشعراوي، ناهد (٢٠١١م). الاغتراب والحنين في شعر مالك بن الريب التميمي. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.

١٩. صالح، زامل (٢٠٠٣م). تحول المثال: دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٠. عبيدالله، محمد (٢٠٠٦م). شعرية الجذور: قراءات في شعر عزالدين المناصرة. عمان: دار مجدلاوي.

٢١. عبيد، محمد صابر (٢٠٠٦م). حركية التعبير الشعري. عمان: دار مجدلاوي.

٢٢. عشري زايد، علي (١٩٩٩م). امرؤ القيس الكنعاني. إعداد وتقديم عبدالله رضوان، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٢٣. عقاق، قادة (٢٠٠١م). دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر: دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

٢٤. علي، عبدالرضا (١٩٨٤م). الأسطورة في شعر السياب، ط٢، بيروت: دار الرائد العربي.

٢٥. قميحة، محمد مفيد (١٩٨١م). الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.

٢٦. محمود، رجب (١٩٧٨م). الاغتراب. الاسكندرية: منشأة المعاف.

٢٧. المتنبي، أبو الطيب (١٩٩٧م). ديوان. شرح العكبري، تصحيح كمال طالب، ٤ مجلدات، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٨. المناصرة، عزالدين (٢٠٠٦م). الأعمال الشعرية. مجلدان، عَمّان: دار مجدلاوي.

٢٩. نيازي، صلاح (١٩٩٩م). الاغتراب والبطل القومي. لندن: مؤسسة الانتشار العربي.

www.SID.ir